

شمال أفريقيا والحركة الصليبية

١١٨٩ – ١٣٩٠ م

للدكتور محمد محمد أمين
جامعة القاهرة

NORTH AFRICA AND THE CRUSADES

1189—1390 A.D.

By
Dr. MOHAMED M. AMIN
Cairo University

مستخرج من مجلة الدراسات الافريقية
العدد الثالث ١٩٧٤

مطبعة جامعة القاهرة
والكتاب الجامعى
١٩٧٥

شمال أفريقيا والحركة الصليبية

١١٨٩ - ١٣٩٠م

للدكتور محمد محمد امين
جامعة القاهرة

NORTH AFRICA AND THE CRUSADES

1189—1390 A.D.

By
Dr. MOHAMED M. AMIN
Cairo University

North Africa had a good geographical situation in the West of Mediterranean Sea, and its Islamic States — in middle ages had a big naval force. So it played a considerable role in the crusades in the Levant. Its role had cleared in :—

1. Saladin's letter to the Caliph Al–Mansur Ya'qub Almohad in Morocco to say that if Western Christendom was sending its knights to fight for the Holy Land Western Islam should do likewise.
2. The co-operation between Egypt and Tunis against St. Louis's crusades, in Egypt 1249 A.D. and in Tunis 1270 A.D.
3. New plans of crusades in propagandists's projects cleared the importance of the Africa as a route to Egypt and Levant.
4. The crusade in 1390 A.D. against The Kingdom of Tunis (town of AL-Mahdiya), under the leadership of Duke Louis II of the house of Bourbon.

تمهيد :

قامت الحركة الصليبية فى العصور الوسطى بدعوى تخليص بيت المقدس من أيدى المسلمين ، إلا أن هذه الحركة لم تكن مجرد حرب لاسترداد الأراضى المقدسة من المسلمين ، وحماية حجاج الغرب إلى بيت المقدس ، بل كانت المتنفس الذى عبر به الغرب الأوربى ، فى العصور الوسطى ، عن حماسته الدينية ونقمته على الاسلام والمسلمين من ناحية ، وعن رغبته فى التوسع والاستعمار من ناحية أخرى ، وعن ثورته على الأوضاع الفكرية والإجتماعية والاقتصادية التى سادت الغرب الأوربى فى تلك العصور من ناحية ثالثة[1] .

ولذلك لم تقتصر الحركة الصليبية على ميادينها المعروفة فى الشام ومصر والعراق وشبه الجزيرة العربية ، بل اتسعت حتى شملت أسبانيا وآسيا الصغرى وشمال أفريقيا[2].

والواقع أن لشمال أفريقيا[3] أهمية حربية خاصة فى مجال الحروب الصليبية ، نتيجة لإشرافه على النصف الغربى للبحر المتوسط ، وسيطرته البحرية على هـذا الجزء فى حالة قوة دوله ، فضلا عن أهمية موقعه الجغرافى ، وإمكان استغلال هذا الموقع فى ضرب الأساطيل الصليبية قبل وصولها إلى المشرق ، وقد تنبه إلى هذه الأهمية كل من المسلمين والصليبيين على السواء ، فمنذ وقت مبكر أدرك السلطان صلاح الدين الأيوبى أهمية دول شمال أفريقيا الإسلامية فى جهاده ضد الصليبيين ، ثم عادت هذه الأهمية إلى الظهور خلال التعاون بين مصر وتونس ضد حملتى لويس التاسع على مصر (١٢٤٩م) ، ثم على تونس (١٢٧٠م) ، أما إدراك الصليبيين إلى هذه الأهمية فتجلى فى حملة لويس التاسع على تونس ، وما أعقب ذلك من إهتمام دعاة الحرب الصليبية بشمال أفريقيا ، ومحاولات الصليبيين للاستيلاء على بعض مدن الشمال الافريقى الساحلية .

إدراك المسلمين لأهمية شمال أفريقيا :

كان من نتيجة إنتصار صلاح الدين الأيوبى على الصليبيين فى موقعة حطين ،

(١) عن بواعث الحركة الصليبية أنظر سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور) : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٧ وما بعدها ، أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٤٤٠ وما بعدها .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٣٧ .

(٣) المقصود بشمال أفريقيا هنا : المغرب والجزائر وتونس بحدودها الحالية .

واسترداده لبيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م ، قيام الحملة الصليبية الثالثة ، والتى تولى قيادتها ثلاثة من كبار ملوك أوربا هم : فردريك بربروسا أمبراطور ألمانيا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، ثم كان الحصار الصليبى لعكا (أواخر أغسطس ١١٨٩ م) وازاء تفوق الصليبيين البحرى لم يجد صلاح الدين بدا من دعوة كافة حكام المسلمين - فى المشرق والمغرب - لمشاركته فى الجهاد[١] .

ويهمنا فى هذه الدراسة الرسائل التى أرسلها صلاح الدين الأيوبى إلى المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الخليفة الموحدى بالمغرب (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ - ١١٨٤ - ١١٩٩ م) يستنجد به ليمده بالأساطيل « لتحول فى البحر بين أساطيل الفرنج وبين امداد النصرانية بالشام ، ولمنازلة عكا وطرابلس بالشام »[٢] ، وفى ذلك يقول أبوشامة : «ليقطع عنهم (أى عن الصليبيين) مادتهم من جهة البحر»[٣].

وجاء بهذه الرسائل[٤] ما يدل دلالة قاطعة على إدراك صلاح الدين الأيوبى

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٨٤١ وما بعدها ،
Gibb (H.) : The Life of Saladin, P. 62.

(٢) السلاوى (أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى) : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ ٢ ص١٦٢ ، ١٦٣ ، الجيلالى (عبد الرحمن بن محمد) : تاريخ الجزائر العام جـ ٢ ص٣٠٩، ٣١٠.

(٣) أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن) : الروضتين فى أخبار الدولتين جـ ٢ ص ١٧٠ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٨٦٠ ، الناصر صلاح الدين ص ٢٣٣ ،
Gibb: op. cit P. .63.

(٤) حفظت لنا المصادر حول هذا الموضوع خمس رسائل هى حسب ترتيبها :

١ - خطاب بقلم القاضى الفاضل عن السلطان صلاح الدين الأيوبى إلى المنصور يعقوب بن يوسف فى سنة ٥٨٥ هـ - القلقشندى (أبو العباس أحمد) : صبح الأعشى فى صناعة الأنشا جـ ٦ ص ص ٥٢٦ - ٥٣٠ ، كما ورد نص هذا الخطاب فى - ابن منكلى (محمد بن منكلى) : الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى البحر (مخطوط) ورقة ١٢٣ - ١٢٧ .

٢ - خطاب بقلم القاضى الفاضل عن السلطان صلاح الدين الأيوبى إلى سيف الدولة ابن منقذ رسوله إلى ملك المغرب يعقوب بن يوسف - مؤرخ فى ٢٨ شعبان ٥٨٦ هـ - أبو شامة : المرجع السابق جـ ٢ ص ص ١٧٠ - ١٧١ .

٣ - خطاب من صلاح الدين الأيوبى إلى ملك المغرب يعقوب بن يوسف - بدون تاريخ ، ويختلف نصه عن الخطاب الأول - أبو شامة : المرجع السابق جـ ٢ ص ص ١٧١ - ١٧٣ .

٤ - كتاب من القاضى الفاضل إلى السلطان صلاح الدين الأيوبى بشأن الرسالة إلى ملك المغرب أبو شامة : المرجع السابق جـ ٢ص ص ١٧٤ - ١٧٦ .

٥ - قطعة من رسالة بقلم القاضى الفاضل من صلاح الدين الأيوبى إلى ابن منقذ - وهو بالمغرب - ينهى إليه أخبار القتال حول عكا - أبو شامة : المرجع السابق جـ ٢ ص ص ١٨٨ - ١٨٩ .

إلى أهمية الدور الذى يمكن أن تقوم به الدويلات الإسلامية فى شمال أفريقيا ، فى الجهاد ضد الصليبيين ، فلم يكتف صلاح الدين الأيوبى بطلب المعونة البحرية بل أشار إلى ضرورة قيام أسطول الموحدين بمحاصرة أسطول صقلية ومنعه من الاشتراك فى الحملة الصليبية الثالثة[1] ، فجاء فى إحدى هذ الرسائل « . . . ولو أن دربة عساكرنا فى البحر كدربتها فى البر ، لعجل الله منهم الانتصاف ، واستقل واحدنا بالعشرة ومائتنا بالالف ، وقد اشتهر خروج ملوك الكفار فى الجمع الجم ، والعدد الدهم ، . . . ولما محض النظر زيده ، وأعطى الرأى حقيقة ما عنده ، لم نر لمكاثرة البحر إلا بحراً من أساطيله المنصورة فان عددها واف ، وشطرها كاف ، وبمكنه — أدام الله تمكينه — أن يمد الشام منه بعد كثيف ، وحد رهيف ، ويعهد إلى واليه أن يقيم إلى أن يرتبع ويصيف ، وبمكنه أن يكف شطر الأسطول طاغية صقلية ليحص جناح قلوعه أن تطير ، ويعقل عباب بحره أن يغير ، ويعتقله فى جزيرته ، ويجرى إليه قبل جزيرته ، فيذهب سيدنا وعقبه بشرف ذكر لا ترد به المحامد على عقبها ، ويقيم على الكفر قيامة يطلع بها شمس النصر من مغربها . . . . »[2].

كذلك جاء فى رسالة السلطان صلاح الدين إلى رسوله شمس الدين أبو الحزم عبد الرحمن بن منقذ الذى أرسله إلى ملك المغرب ، ما يوضح أهمية موقع بلاد المغرب الجغرافى وإمكان استغلال هذا الموقع فى الجهاد ضد الصليبيين ، فجاء بها : « . . . فاذا كانت الأساطيل بالجانب المغربى ميسرة ، والعدة فيها متوفرة والرجال فى اللقاء فارهة ، وللمسير غير كارهة ، فالبدار البدار ، . . . وإذا كانت دون الأسطول موانع ، أما من قلة عدة ، أو من شغل هناك بمهمة ، أو بمباشرة عدو ما تحصن منه العورة ، أو قد لاحت منه الفرصة ، فالمعونة ما طريقها واحدة ، ولا سبيلها مسدودة ، ولا أنواعها محصورة ، تكون تارة بالرجال ، وتارة بالمال . . . فلا ترضى همته أن يعين الكفر الكفر ، ولا يعين الأسلام الأسلام

---

(١) كان وليم الثانى ملك صقلية النورمانى قد بادر سنة ١١٨٨ م بارسال أسطول يحمل بضع مئات من الفرسان إلى طرابلس تحت قيادة أمير البحر مارجريت البرنديزى الذى نجح فى منع صلاح الدين من الاستيلاء على طرابلس واللاذقية ، وخشى صلاح الدين أن يكون هذا الأسطول النورمانى مقدمة لحملة صليبية كبرى — سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٨٤٢ ، ٨٤٣ ،

Grousset (R.) : Hist - des Croisades, vol. 3, P. 8., Runciman (S.) : A Hist - of the Crusades, vol. 3, P. 5.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٦ ص ٥٢٦ — ٥٣٠ ، ابن منكلى : الأحكام الملوكية ورقة ١٢٣ — ١٢٧ .

وما اختص بالاستعانة إلا أن العدو جاره ، والجار أقدر على الجار ، وأهل الجنة أولى بقتال أهل النار ، ولأنه بحر والنجدة بحرية ، ولا غرو أن يجيش البحار البحار . . . »[1] .

ويتأكد نفس المعنى فى النص الذى أورده أبو شامة عن رسالة صلاح الدين إلى ملك المغرب يعقوب بن يوسف فى شعبان سنة ٥٨٦ هـ (أكتوبر ١١٩٠ م) ، فقد جاء بها « . . . كان المتوقع من تلك الدولة العالية ، والعزمة الغادية ، مع القدرة الوافية ، والهمة المهدية الهادية ، أن يمد غرب الإسلام المسلمين بأكثر مما أمد به غرب الكفار الكافرين . . . »[2].

كما جاء أيضاً فى رسالة السلطان صلاح الدين إلى رسوله ابن منقذ – وهو بالمغرب – ينهى إليه أخبار القتال حول عكا ، جاء بها « . . . وأحوج ما كنا إلى النجدة البحرية ، والأساطيل المغربية ، فان عاريتنا به ترد ، وعاديتنا بها تشتد . . . ، فان للاسلام نظرات إلى الأفق الغربى يقلبها ، وخطرات من اللطف الخفى يقربها ، ويكفى من حسن الظن أنها نظرة ردت الهواء الشرقى غربا ، وخطرة أوهمت أن تلك الهمة لو تلم بالسفائن لأخذت كل سفينة غصباً . . . »[3].

ورغم أن هذه الرسائل لم تأت بالثمرة المرجوة منها ، بسبب انشغال الموحدين بحروبهم فى الأندلس ، فضلا عن مهاجمة قراقوش لاطراف المغرب واستيلائه على تونس واعلان تبعيتها لصلاح الدين[4] ، فانها تدل على إدراك صلاح الدين الأيوبى – منذ وقت مبكر – إلى أهمية موقع دول شمال أفريقيا الإسلامية ، والدور الذى يمكن أن تقوم به من أجل التخفيف من حدة الهجوم الصليبي على الشام ، وهى ولا شك نظرة استراتيجية عميقة فى استغلال إمكانيات العالم الإسلامى

(١) أبو شامة : الروضتين جـ ٢ ص ١٧٠ ، ١٧١ .

(٢) أبو شامة : المرجع السابق جـ ٢ ص ص ١٧١ – ١٧٣ ، Grousset ; op. cit. vol. 3, p. 32.

(٣) أبو شامة : المرجع السابق جـ ٢ ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٤) عن العلاقة بين صلاح الدين ، والمنصور يعقوب بن يوسف أنظر – سعد زغلول عبد الحميد (الدكتور) : العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدى – مجلة كلية الآداب جامعة الأسكندرية ١٩٥٢ – ١٩٥٣ ص ٨٤ – ١٠٠ ، ابن أيبك (أبو بكر عبد الله) : كنز الدرر جـ ٧ (تحقيق د . سعيد عاشور) ص ٨٣ ، الجيلالى : تاريخ الجزائر العام جـ ٢ ص ٣٠٩ ، ٣١٠ ، Gibb, op. cit P.63.

الجغرافية والحربية والمادية فى الجهاد ضد الصليبيين ، وهو ما يتفق مع أحدث أساليب الحرب الاستراتيجية الحديثة .

وإذا كانت رسائل صلاح الدين لم تجد تجاوبا لدى حكام المغرب الموحدين ، فان حكام تونس من الحفصيين ، قاموا بدور هام ضد العداون الصليبى على مصر على يد لويس التاسع — ملك فرنسا — الذى قاد الحملة الصليبية السابعة ضد مصر فى صفر ٦٤٧ هـ يونيه ١٢٤٩ م[1]. وينحصر ذلك الدور فى تلك الرسالة الهامة التى أرسلها الأمير أبو زكرياء يحيى بن المولى ابى محمد عبد الواحد بن أبى بكر بن المولى أبى حفص عمر الهنتاتى ، أمير تونس[2] (٦٢٥ — ٦٤٧ هـ — ١٢٢٨ — ١٢٤٩ م) إلى سلطان مصر الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ — ٦٤٧ هـ — ١٢٤٠ — ١٢٤٩ م) يخبره بتحركات الملك لويس التاسع وقصده الديار المصرية .

وقد أشار إلى هذه الرسالة الهامة إشارة واضحة وصريحة مؤرخ الدولة الحفصية ابن القنفذ القسنطينى (٧٤٠ — ٨١٠ هـ — ١٣٣٩ — ١٤٠٧ م)[3] ، فذكر فى كتابه الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية : « وكان الملك الصالح ابن الملك الكامل بن أيوب صاحب الديار المصرية يعد للامير أبى زكرياء هذه الفضيلة ويراه أخا ، فانه تحقق قصد الفرنسيس إلى الديار المصرية ، قبل أن يبلغ ذلك الملك

---

(١) عن حملة لويس التاسع على مصر أنظر سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٠٥١ وما بعدها ، زيادة (الدكتور محمد مصطفى) : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ص ٨٧ وما بعدها ، محمد محمد أمين (الدكتور) : السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب (رسالة ماجستير بجامعة القاهرة ١٩٦٨) ص ١٠٨ وما بعدها ، جوزيف نسيم (الدكتور) لويس التاسع فى الشرق الأوسط (القاهره ١٩٥٩) ، هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل (القاهرة ١٩٦٠) .

(٢) هو يحيى بن عبد الواحد بن أبى بكر بن عمر ، ولد فى مراكش سنة ٥٩٩ هـ — ١٢٠٢ م وبويع فى القيروان ثم فى تونس سنة ٦٢٥ هـ — ١٢٢٨ ، ولم يتسم بأمير المومنين واقتصر على الأمير ثم بويع بيعة ثانية سنة ٦٣٤ هـ — ١٢٣٧ م ، واعترفت بأمارته قسنطينة ، وبجاية ، وتلمسان ، وسبته ، والمرية ، وأشبيلية ، وغرناطة ، وشريش ، وسجلماسة — أنظر الوزير السراج (محمد بن محمد الأندلسى) : الحلل السندسية فى الأخبار التونسية جـ ١ ق ٤ ص ١٠٢٣ وما بعدها، أبن القنفذ القسنطينى (أبو العباس أحمد بن على بن الخطيب) : الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية ص ١٠٧ وما بعدها، أبن أبى دينار (أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم الرعينى القيراونى) المؤنس فى أخبار أفريقيا وتونس ص ١٣٢ وما بعدها .

(٣) عن أبن القنفذ وارتباطه بالأسرة الحفصية أنظر مقدمة كتاب الفارسية تحقيق محمد الشاذلى النيفر وعبد المجيد التركى ص ٨٤ وما بعدها .

الصالح ، فوجه كتابه فى ذلك فى البر إلى الملك الصالح ، فدخل عليه الرسول بالقاهرة ، فجاءه بالكتاب ، فاذا فيه الاعلام بما عزم عليه العدو — دمره الله — والاعتذار على عدم المبادرة إليه بنفسه وجنده ، لما يخشى من عدو صقلية المجاورة له ، ومن أعراب أفريقية ، فافاض على ذلك الملك الصالح فى شكر الامير ابى زكرياء وأثنى عليه ، وأخذ حينئذ فى الاجتهاد للقاء العدو[1] » .

وإذا كان مؤرخو الحروب الصليبية لم يشر أى منهم إلى هذه المراسلة الهامة فربما يرجع ذلك إلى أنها وردت فى تأريخ للدولة الحفصية ، ولم يرد ذكرها فى أى من مصادر الحروب الصليبية المتداولة .

ولا شك فى أن الموقع الجغرافى للدولة الحفصية ، وبسط نفوذها على بعض مدن الأندلس ، جعلها أقرب جغرافيا إلى فرنسا ، وبالتالى أعلم بما يدور فى فرنسا من استعدادات عسكرية ، خاصة وأن الدعوة للحملة الصليبية السابعة بدأت فى مجمع ليون الذى عقد فى صيف سنة ١٢٤٥ م ، وقرر ضرورة إنفاذ حملة صليبية إلى الشرق لتدارك الموقف قبل فوات الأوان[2] ، وذلك عقب استيلاء قوات الخوارزمية — العاملة فى خدمة الصالح أيوب — على بيت المقدس سنة ٦٤٢هـ—١٢٤٤م[3] ، يضاف إلى ذلك أن استعدادات لويس التاسع لم تكن على درجـــة كبـــيرة من السرية ، ففى مجمع ليون أعلن البابا أنوسنت الرابع Innocent IV اختيار البابوية لويس التاسع لتولى قيادة الحملة الصليبية [4] . وأخذ لويس التاسع يستعد لحملته الصليبية طوال ثلاث سنوات ، تسربت خلالها أخبار حملته إلى الدول المجاورة ومن بينها الدولة الحفصية ، فكانت رسالة أمير تونس إلى سلطان مصر .

ولا شك فى أن الملك الصالح أيوب استفاد كثيراً من هذا التحذير ، فضلا

---

(١) أبن القنفذ القسنطينى : الفارسية ص ١١٢ .
(٢) سعيد عاشور — الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٥٢ ، ١٠٥٣ .
(٣) محمد محمد أمين : السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ص ١٠٢ وما بعدها .
(٤) زيادة : حملة لويس التاسع ص ٨٩ ، محمد محمد أمين : المرجع السابق ص ١١٢ ، ١١٣ .

عن التحذير المماثل الذى وصله من الامبراطور فردريك الثانى ، إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة(١) ، وعمل على استكمال استعداداته العسكرية .

وإذا كانت رسائل صلاح الدين إلى المنصور يعقوب شاهد على إدراك صلاح الدين إلى أهمية دول شمال أفريقيا بالنسبة للحركة الصليبية ، فان رسالة أمير الدولة الحفصية هى الدليل العملى على هذه الأهمية ، وإشارة إلى بعض ما يمكن أن يقدمه الغرب الإسلامى إلى الشرق الإسلامى فى جهاده ضد الحركة الصليبية ، وتأكيداً جديداً إلى إدراك المسلمين فى الشرق والغرب إلى أهمية شمال أفريقيا فى مجال الحروب الصليبية .

إدراك الصليبيين لأهمية شمال أفريقيا :

أما إدراك الصليبيين إلى أهمية دول شمال أفريقيا الإسلامية فى الحركة الصليبية ، فقد بدأ متأخراً نسبياً ، وتجلى هذا الإدراك فى اتجاه حملة لويس التاسع Louis IX سنة ٦٦٨ هـ – ١٢٧٠ م – وهى الحملة الصليبية الثامنة – نحو تونس .

فبالرغم مما عرف عن لويس التاسع من تقواه ، وأنه لم ينس مطلقاً الأرض المقدسة ، إذ كان يرسل كل سنة مبلغاً من المـــال للانفاق على جماعة عسكرية صغيرة تركها بعكا ، على أمل أنه سوف يعود مرة أخرى إلى الأرض المقدسة على رأس حملة صليبية ، ولكن لم تتهيأ له الفرصة إلا سنة ١٢٦٧ م ، فاقسم للمرة الثانية على أن يقوم بحملة صليبية متأثراً بما جاءه من أخبار انتصارات السلطان بيبرس، (٢) فبدأ يعد عدته ،وذلك بعد أن حل به الارهاق والمرض،(٣) وفى سنة ١٢٧٠ م أصبح لويس التاسع مستعداً للتوجه بحملته إلى فلسطين(٤) ، وبالرغم من ذلك تحولت هذه الحملة عن غرضها الأساسى إلى ميدان آخر على يد شارل كونت أنجو Charles of Anjou ، شقيق الملك لويس (٥) .

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٥٤ وما بعدها ، محمد محمد أمين : المرجع السابق ص ١١٣ وما بعدها .

(٢) . باركر (ارنست) : الحروب الصليبية – ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى ص ١٢٩

(٣) Langlois (Ch. V:.) Hist. de France, T. 3, II, P. 99.

(٤) Joinville : The Life of Saint Louis, P. 345 ; Runciman : op. cit., Vol. 3, P. 291.

(٥) يرى باركر أن لويس التاسع هو الذى هداه تفكيره إلى أنه يجوز أن يتحول باى (أمير) =

وبالرغم من محاولات تفسير حملة لويس التاسع ضد تونس فى ضوء تطورات التاريخ الأوربى ، فى ذلك الوقت ، ورغبة شارل كونت أنجو - الذى أصبح ملكاً على جنوب إيطاليا وصقلية ١٢٦٦ (١) - فى القبض على خصومه الذين فروا إلى تونس ، وأن يحصل على الجزية التى اعتاد الحفصيون دفعها إلى آل هوهنشتاوفن Hohenstaufen (٢) ، فانى أرى أنه يمكن إدراك الأسباب الرئيسية فى تحويل هذه الحملة إلى تونس ، فى ضوء أطماع كونت أنجو السياسية والاقتصادية ، ذلك أن شارل رأى ضرورة الإفادة من الفرنسيين والأموال الفرنسية لمصلحته الشخصية ، وليس لمساندة مملكة بيت المقدس ، فكان يأمل فى الحصول على مساعدة لشن هجوم على بيزنطة ، فاذا لم يتيسر ذلك ، فلا أقل من ضرورة تحويل الحملة الصليبية إلى جهة يمكن أن يجنى من ورائها مكاسب إقتصادية (٣) .

ولم يمنع شارل من اختيار تونس لتوجيه حملة أخيه إليها ، ما عرف عن أميرها أبى عبد الله محمد المستنصر بالله الحفصى (٦٤٧ - ٦٧٥ هـ - ١٢٤٩ - ١٢٧٧م) من ميله « للفرنج واستخدامهم (٤) » ، والعلاقات الودية التى تربطه

=تونس إلى المسيحية ، أما شارل فكان يكره مهاجمة تونس لارتباطها منذ أمد طويل بعلاقات تجارية مع صقلية ، وأن شارل أرغم على المشاركة فى خطط أخيه - باركر : المرجع السابق ص ١٢٩ ، أنظر ما يلى .

(١) أقنع البابا اربان الرابع Urban IV لويس التاسع بضرورة القضاء على الهوهنشتاوفن فى صقلية لضمان نجاح كل حملة صليبية مستقبله ، وبالرغم من وفاة أربان الرابع سنة ١٢٦٤م ، فان البابا كلمينت الرابع Clement IV أتم الاتفاق مع شارل كونت أنجو الذى زحف سنة ١٢٦٥م على أيطاليا ونجح فى استخلاص جنوب أيطاليا وصقلية من آل الهوهنشتاوفن - عبد القادر أحمد اليوسف (الدكتور) : العصور الوسطى الأوربية ص ١٩٨ ، ٢٨٧ ، وما بعدها ،

Stephenson(C.) : Mediaeval History, P. 479—480 ; Julien : Hist. of North Africa, P. 143; Runciman : op. cit., Vol. 3, P. 291.

(٢) أعتاد الحفصيون دفع جزية صغيرة إلى النورمان ، ثم من بعدهم إلى آل هوهنشتاوفن فى صقلية مقابل عدم تعرض قراصنة صقلية لهم ، وحتى يتمكنوا من بيع حبوبهم فى موانى الجزيرة ولكن المستنصر رفض دفع هذه الجزية إلى شارل - سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٢٣٨ ، Julien : op. cit., P. 143 ; Langlois : op. cit., T. 3, II, P. 101. Grousset. op. cit. Vol.3. P.652.

(٣) Julien : op. cit., P. 143 ; Runciman : op. cit., Vol. 3. P. 291,, Grousset, op. cit. Vol. 3. P. 652.

(٤) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٣ ص ٦٠١ .

بحكام أوربا المسيحيين ، فقد أقنع شارل أخاه لويس التاسع أن أمير تونس مستعد للتحول إلى المسيحية ، وأن إظهار قدر قليل من القوة كفيل بتحقيق هذه الغاية ، وبذلك يمكن إضافة إقليم جديد إلى العالم المسيحى يقع فى منطقة بالغة الأهمية الاستراتيجية لكل حملة صليبية جديدة[١]، أو على الأقل الإفادة من موارد تونس وموقعها فى القيام بحملة صليبية أخرى ضد مصر ، للرد على سلطانها بيبرس الذى أصبح نشاطه يمثل خطراً حقيقياً على الصليبيين[٢]، كذلك أوضح شارل أن سيطرة المسيحيين على المحور : صقلية — مالطة — تونس — سوف يغلق النصف الغربى من البحر المتوسط أمام السفن الإسلامية فى أسبانيا ومراكش ، ويمنعها من الوصول إلى المشرق الإسلامى[٣] .

لم يخف أصدقاء لويس التاسع كراهيتهم واعتراضهم على هذا المشروع ، ومن هؤلاء جوانفيل الذى يقول أنه : « اعتبر جميع من أشاروا على الملك بالقيام بهذه الحملة قد ارتكبوا ذنباً مهلكاً وخطيئة كبرى ... كان أثم الذين أشاروا على الملك بالسفر إثما عظيما لمعرفتهم ما كان عليه من ضعف جثمانى ، إذ لم يكن يحتمل أن يؤخذ فى عربة أو يركبوه جواداً ...[٤] » وبالرغم من معارضة أصدقاء لويس ، وبالرغم من مرضه ، فان لويس التاسع وثق فى أخيه شارل ، فابحر من أيج — مورت Aigues-Mortes فى جنوب فرنسا ، فى ٤ يوليو ١٢٧٠ م ، على رأس حملة ضخمة [٥]، صحبه فيها أبناؤه الثلاثة ، وصهره تيبالد ملك نافار ، وغيرهم من أبناء رفاقه فى حملته الصليبية السابقة ، أو من رفاقه الذين ظلوا على قيد الحياة [٦] .

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٣٨ ،

Duggan (A.) : The Story of the Crusades, P. 244 ; Sadeque (S.F.) : Baybars I of Egypt, P. 60; (Runciman : op. cit., Vol. 3, PP. 291—292, Grousset : op. cit. vol.3 . p. 651, Archer T.A.) The Crusades, p. 401.

(٢) تزايد نشاط السلطان بيبرس (١٢٦٠ — ١٢٧٧ م) ضد الصليبيين فى الشام ، ونجح فى سنة ١٢٦٨ م فى الأستيلاء على أنطاكية — أنظر تفصيل ذلك فى سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٤٣ وما بعدها ، Langlois : op. Cit., T. 3, II, P. 460.

(٣) Duggan : op. cit., P. 244, Grousset : op. cit. vol. 3. P. 652.

(٤) Joinville : op. cit. p. 346.

(٥) بالغت بعض المصادر العربية فى تقدير عدد هذه الحملة فيذكر ابن أبى زرع « وهم فى أمم لا يعلم لها عدد ، ومددهم فى البحر متصل ، فكانت الروم فى أربعين ألف فارس ، ورماتها مائة ألف رام ، ورجالها مائة ألف راجل » أنظر الأنيس المطرب بروض القرطاس ص ٤٠٤ .

(٦) الجيلالى : تاريخ الجزائر العام ج ٢ ص ٣٠ ،

Langlois : op. cit., P. 467 ; Runciman : op. cit., Vol. 3, P. 291, Archer ; op. cit. P. 401.

وصل أسطول لويس التاسع أمام قرطاجنة فى ١٨ يوليو ١٢٧٠ م ، فيذكر ابن القنفذ القسنطينى « نزول النصارى بتونس بسبعة من الملوك وبكرة من العدد والعدد والخيل والاخبية وذلك فى صلاة الظهر من يوم الخميس السادس والعشرين من ذى الحجة (٦٦٨ هـ) (١).

لم تظهر أى دلائل تشير إلى رغبة أمير تونس فى التحول إلى المسيحية ، إذ أنه أعاد تحصين عاصمته ، وتعزيز حاميتها (٢) ، إذ أمر « السلطان فى سائر عمالاته بالاستكثار من العدة وأرسل فى الثغور لذلك باصلاح الاسوار واختزان الحبوب »(٣) كما بعث السلطان « فى ممالكه حاشداً ، فوافته الامداد من كل ناحية ، واجتمع من المسلمين عدد لا يحصى ، وخرج الصلحاء والفقهاء والمرابطون لمباشرة الجهاد بانفسهم » (٤) .

أدرك الظاهر بيبرس — سلطان مصر — مدى خطورة هذه الحملة — إذا م قدر نجاحها على مصر والشام ، ولذلك نجده يتناسى خصومته مع الحفصيين (٥)، ويبادر بالكتابة إلى أمير تونس أبو عبد الله محمد المستنصر يخبره بعزمه على مساعدته كما أمر بحفر الآبار فى الصحراء الغربية ليعتمد عليها الجند فى طريقهم إلى تونس ، كما أمر عربان برقة بالمسارعة إلى نجدة تونس ، وفى ذلك يقول المقريزى : « فكتب السلطان إلى صاحب تونس بوصول العساكر إليه نجدة على الفرنج ، وكتب

---

(١) أبن القنفذ القسنطينى : الفارسية ص ١٣١ .

(٢) Calmette (J.) : Le Moyen Age, P. 238 ; Duggan : op. cit., P. 245.

(٣) أبن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٩١ .

(٤) أبن خلدون : المرجع السابق ج ٦ ص ٢٩٣ ، الجيلالى : تاريخ الجزائر العام ج ٢ ص ٣٠

(٥) ترجع أسباب الخلاف بين بيبرس والحفصيين إلى إتخاذ الحفصيين ألقاب الخلافة ، ومبايعة شريف مكة للحفصيين بالخلافة والأعتراف بسيادتها على الأماكن المقدسة فى الحجاز (٦٥٧ هـ) مما يفقد دولة المماليك سيادتها على بلاد الحجاز ، وهو أمر ليس له سابقة منذ أيام الطولونيين ، ولذلك أسرع بيبرس إلى إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة . أبن أبى دينار : (أبو عبد الله محمد بن ابراهيم) : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص ٣٧ ، سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ١١٢ . ، وأنظر أيضا : Ayalan. D. : Studies on the transfer of the Abbasid Caliphate from Bagdad to Cairo. Arabica. Vol. VII 1960. pp. 41—59.

إلى عربان برقة وبلاد الغرب بالمسير إلى نجدته ، وأمرهم حفر الآبار فى الطرقات برسم العساكر ، وشرع فى تجريد العساكر »[1].

لم يكتف الظاهر بيبرس بذلك ، بل وعد البنادقة بامتيازات تجارية فى مصر وسوريا ، حتى لا يقدموا مساعداتهم البحرية إلى لويس التاسع ، وحتى إذا اضطروا إلى إجابته لطلبه تكون شروطهم قاسية ، فلا يقبلها[2].

إنتهى أمر حملة لويس التاسع ضد تونس بالفشل ، ازاء مقاومة أمير تونس ، فضلا عن شدة حرارة الجو — فى هذا الوقت من السنة — ولتفشى الأمراض فى معسكر الصليبيين ، فوقع ألوف من الأمراء والفرسان والعساكر الصليبيين فريسة للمرض ، وكان لويس التاسع من أوائل من فتك بهم المرض[3].

وصل شارل كونت أنجو بجيشه فى ٢٥ أغسطس ١٢٧٠ م ، فعلم أن أخاه — لويس التاسع — مات منذ ساعات قليلة ، فتولى شارل قيادة الحملة ، وكان لما أشتهر به شارل من القوة والنشاط ، أثره فى عدم القضاء على الحملة ، ومع ذلك فان شارل تصرف على أنه ملك صقلية ، لا محارب صليبي ، فلم يهتم إلا بمصالحه الشخصية ، ومصالح مملكته ، ولذلك أسرع بعقد معاهدة مع المستنصر فى ٥ نوفمبر ١٢٧٠ م ، حصل شارل بمقتضاها على مبلغ من المال على سبيل التعويض لنفسه ولملك فرنسا ، فيذكر ابن القنفذ : « ودفع لهم من المال فى الصلح ألف قنطار من الفضة »[4] ، كما حصل شارل أيضاً على جزية ضخمة لخزانة صقلية ، تعادل ضعف الجزية التى كان يدفعها الحفصيون من قبل إلى آل هوهنشتاوفن[5] ، فضلا عن السماح للرهبان والقساوسة المسيحين بالاقامة فى المملكة الحفصية تحت رعاية الدولة الأسلامية ، « ولهم إتخاذ الكنائس والأديرة ، وأن تعطى لهم الأرض الكافية

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٥٩٠ . Grousset, op. cit. vol 3, p. 654.

(٢) Heyd (W.) : Hist. du Commerce du Levant ,Vol. I, P. 409 ; Sadeque : op. cit., P. 60.

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٢٣٩ ؛ Julien : op. cit., P,144 ; Cam. Med. Hist., Vol. 6, P. 360.

(٤) أبن القنفذ القسنطيني : الفارسية ص ١٣٢ .

(٥) بار كر : المرجع السابق ص ١٣٠ ؛ Julien : op. cit. p. 144.

لذلك[1] ، ثم عاد شارل إلى إيطاليا ، ولكن بعد أن قضى على الحملة الصليبية بالفشل[2].

وإذا كانت وفاة لويس التاسع ، وفشل حملته السريع على تونس ، جعلت السلطان بيبرس يوقف استعداداته لمساعدة تونس ، فان هذا لا يقلل من أهمية مبادرة بيبرس ، وادراكه لأهمية دول شمال افريقيا الإسلامية فى جهاده ضد الصليبيين .

شمال أفريقيا ومشروعات دعاة الحرب الصليبية :

وإذا كانت حملة لويس التاسع على تونس قد منيت بالفشل ، فان شمال إفريقيا احتل مكانة كبيرة فى مشروعات دعاة الحرب الصليبية فى أواخر القرن الثالث عشر ، وأوائل القرن الرابع عشر الميلادى ، وأهم هؤلاء الدعاة الذين اهتموا بشمال أفريقيا : ريموند لول Raymond Lully ، أو رومان لول Roman Lull وبوركارد Burcard وفيليب دى مزيير Philippe de Mezieres ومارينو سانودو Marino Sanudo

عاصر ريموند لول (١٢٣٢ – ١٣١٦ م) فترة الانهيار الصليبي فى الشرق وسمع مع معاصريه عن سقوط عكا آخر المعاقل الصليبية فى الشام سنة ١٢٩١ م ، على يد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون[3] ، وكان لول قد بدأ نشاطه الدينى سنة ١٢٦٣ م عندما أعلن توبته ، بعد حياة مملوءة بالخلاعة والمجون ، ووهب نفسه للقديس فرانسيس St. Francis [4] ، فوضع الكثير من الكتب والرسائل[5] ،

---

(١) الجيلالى : تاريخ الجزائر العام ج ٢ ص ٣٣ .

(٢) Joinville : op. cit., P. 350 ; Julien : op. cit., P. 144 ; Runciman : op. cit., Vol. 3, P. 291.

(٣) أنظر تفصيل ذلك فى – سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٧٦ وما بعدها .

(٤) قديس إيطالى (فرانسوا داسيز) ولد سنة ١١٨٢ م ، وأسس مذهبه (الفرانسيسكى) سنة ١٢٠٩ م ، وتوفى سنة ١٢٢٦ م – الجيلالى : تاريخ الجزائر العام ج ٢ ص ٣٣ حاشية (١) ، Turner (W.) : The Catholic Encyclopedia, Vol. XII, P. 670.

(٥) ينسب إلى لول أكثر من أربعة آلاف كتاب ورسالة ، ولكن من الثابت أنه ألف على الأقل ٣٠٠ كتاب ، ووضع خططه الصليبية فى كتاب Liber de Fine أنظر Atiya (A.S.) : The Crusade in the Later Middle Ages, P. 74 ; Crrusade, Commerce and Culture, P. 96.

وسافر إلى المراكز الرئيسية فى أوربا ليلقى المحاضرات ، كما قابل البابا ، وعرف طريقه إلى المجالس الدينية ، وسافر أيضاً إلى الشرق (١).

وكان الهدف الرئيسى لريموند لول من وراء نشاطه الدينى هو ادخال كافة الأمم بما فى ذلك المسيحيين الشرقيين ، والتتار ، والمسلمين إلى حظيرة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، ومن أجل تحقيق هدفه أخذ يدعو إلى القيام بنشاط صليبى أساسه التبشير كدعوة سلمية للدخول فى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية(٢)، أما الحرب الصليبية فكان يرى أنها آخر أمل لتحقيق هدفه ، وكان يقول أنه يدعو إلى حرب صليبية ليس بالسيف ولكن بالمحبة ، ولكن لم يلبث أن قال « ليس فقط فى الأراضى المقدسة ، ولكن أيضاً فى الدول الإسلامية بصفة عامة ، يجب أن تغزى بالجيوش(٣).

لم يكن لول أول من عمل بالتبشير بين المسلمين(٤) ، ولكنه كان أكثر مجهوداً من الذين سبقوه أو عاصروه ، وقد بدأ جهوده التبشيرية بين المسلمين بعد أن تعلم اللغة العربية فى مدرسة ميورقة — أول مدرسة فى الغرب لتعليم اللغة العربية — حتى أصبح يتكلم اللغة العربية بطلاقة ، ويكتب بها أيضاً ، ويترجم كتاباته إلى اللغة العربية(٥).

وفى سنة ١٢٩٢ م أبحر لول من جنوة إلى تونس ، ليدعو إلى المسيحية عن طريق الفلسفة(٦) وهناك نظروا إلى دعوته على أنها شرك وحض على الكفر ، فحكم عليه بالاعدام ، ثم خفف الحكم إلى النفى ، فنقل من زنزانته إلى مركب جنوى

---

(١) Atiya : The Crusade in the Later Middle Ages, P. 75.

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١١٩٤ ؛ Runciman : op. cit., Vol. 3, P. 431

(٣) Atiya : op. cit., P. 75...76.

(٤) من الأفكار الصليبية للتبشير بالمسيحية بين المسلمين ، ماظهر أثناء حملة الأطفال سنة ١٢١٢ م عندما ظهر فى حوض الرين صبى أسمه نيقولا ، نادى بأن الأطفال الألمان لن يلجأوا إلى غزو الأراضى المقدسه بالقوة ، وإنما سينجحون فى تحويل المسلمين جميعاً إلى المسيحية عن طريق التبشير — سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٩٥٥ ، ٩٥٦ .

(٥) Atiya : op. cit., P. 89 ; Turner : op. cit., P. 670.

(٦) Turner : op. cit., P. 670.

تحت وابل من الحجارة فى شوارع المدينة[1] .

ورغم أن حياته أنقذت باعجوبة ، فانه كان يحلم بالعودة ثانية إلى تونس « لينقذ أرواحهم » على حد تعبيره[2]، ولكنه قبل أن يعود ثانية إلى تونس سمع بغزو التتار لبلاد الشام سنة ١٢٩٩ م ، فاسرع إلى قبرص فى طريقه إلى الشام عسى أن يقابل خان التتار يدعوه إلى المسيحية ، ولكنه وصل إلى الشام بعد أن غادرها التتار فطلب من هنرى الثانى ملك قبرص مساعدته فى مهمته التبشيرية فى مصر والشام ، ولكن هنرى الثانى أعادة إلى جنوه ، ومنها إلى باريس[3].

وفى سنة ١٣٠٧ م أبحر لول ثانية إلى شمال أفريقيا ، وفى هذه المرة نزل فى مدينة بجاية بالجزائر ، فى محاولة لنشر المسيحية بين المسلمين وخاصة البربر ، وفى بجاية اتصل ببعض العلماء المسلمين ، وطلب مناظرتهم فى مواضيع دينية تتعلق بالإيمان ، وحدد قاضى المدينة الزمان والمكان لتلك المناظرة ، إلا أن الرأى العام فى بجاية ثار على لول فالقى به فى السجن بتهمة الاساءة إلى المسلمين[4] ، ولحمايته من غضب الجماهير ، وبعد أن قضى فى السجن مدة ستة أشهر ، طرد من البلاد[5].

ولم يلبث أن قدم لول مشروعا إلى مجمع فيينا Council of Vienna (١٣١١ — ١٣١٢ م) للقيام بحملة صليبية[6] ، يكون على رأسها ملك ، وتشترك فيها جميع هيئات الفرسان من داوية واسبتارية وتيوتون وغيرهم ، على أن يندمجوا جميعاً فى هيئة واحدة تحت زعامة الملك الذى سيتولى قيادة الحملة ، واقترح لول أن يبدأ خط سير الحملة من أسبانيا حيث يقوم الصليبيون بطرد المسلمين منها ، ثم ينتقلون عبر المضيق إلى شمال أفريقيا[7] ، حيث يحاربون البربر فى عقر دارهم ،

---

(١) سعيد عاشور : المرجع السابق جـ ٢ ص ١٢٣٩ . الجيلالى : تاريخ الجزائر العام جـ ٢ ص ٣٣ . Atiya : op. cit., P. 90.

(٢) Atiya : op. cit., P. 90.

(٣) Ibid, P. 90...91.

(٤) أنظر ملخص آراء لول فى اليهودية والمسيحية والاسلام فى Atiya : op. cit., P. 92.

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٢٣٩ ، Atiya : op. cit., P. 90...91.

(٦) Turner : op. cit., P. 670.

(٧) كانت حملة لويس التاسع على تونس أول أشارة إلى أهمية شمال أفريقية كقاعدة لضرب مصر=

مبتدئين بسبته ، ثم يتوجهون نحو تونس ويزحفون بحذاء الساحل إلى مصر ، وبذلك يسهل الاستيلاء على مصر واستعادة الأراضى المقدسة(١).

ورغم فشل ريموند لول مرتين فى التبشير بالمسيحية فى شمال أفريقية ، ورغم أنه بلغ الثالثة والثمانين من عمره ، فانه عاد للمرة الثالثة والأخيرة إلى شمال أفريقيا سنة ١٣١٥ م ، وفى هذه المرة كان يحمل خطاب توصية مؤرخ ٥ نوفمبر ١٣١٤ م من جيمس الثانى ملك أرغونة James II of Aragon لأمير تونس أمير المؤمنين المولى ابى يحيي اللحيانى بن الأمير ابى العباس (٧١١ هـ — ٧١٧ هـ — ١٣١١ — ١٣١٧ م)(٢) فسمح أمير تونس لريموند لول بقضاء حياة هادئة فى تونس واحتاط لول فاخذ يدعو لدعوته سراً ، ولا يجعل سبباً للعامة لطرده ، ولكن أحد كتبه التى كتبها فى حوالى ذلك الوقت ، قدم إلى مفتى تونس ، ولذلك نقل لول إلى بجاية بالجزائر(٣).

وفى بجاية تحقق أمل ريموند لول ، إذ أنه كان قد أعرب منذ عشرين سنة أنه يأمل أن يظل فى مهمته التبشيرية حتى الموت ، كما عبر فى مناسبة أخرى عن خوفه من أن يموت ميتة طبيعية ، فما أن وصل إلى بجاية فى أواخر سنة ١٣١٥ م أو فى بداية سنة ١٣١٦ م حتى اكتشف أمره ، ورجم بالحجارة على الشاطىء حتى الموت وعندئذ قام أثنان من التجار الجنوية بسحب جثته إلى سفينتهما ، وعندما

= مستقبلا ، أما رومان لول فيعتبر أول من أشار إلى طريق الساحل الشمالى لأفريقيا كطريق للحملات الصليبية ، ثم تلاه فى ذلك كل من بركارد وفليب مزيير — أنظر Atiya : op. cit., Ps. 80,101,147. وانظر ما سبق ص ١٥٨ وما يلى ص ١٦٥، ١٦٦ .

(١) إعتقد الصليبيون منذ وقت مبكر أن مفتاح بيت المقدس فى مصر ، وأن استيلاءهم على مصر هو الضمان الوحيد لضمان سيطرتهم على بيت المقدس ، ويؤكد هذا ما ذكره ابن واصل عن حملة لويس التاسع على مصر فيقول : « حدثته نفسه بأن يستعيد البيت المقدس إلى الفرنج إذ هو بيت معبودهم على ما يزعمون ، وعلم أن ذلك لا يتم إلا بملك الديار المصرية » ابن واصل : مفرج الكروب (المخطوطة ،) ج ٢ ورقة ٣٥٥ ب . سعيد عاشور . الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٩٤ ، ١٢٣٩ ، Atiya : op. cit., P. 80...81.

(٢) ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار أفريقيا وتونس ص ١٤٢ ، ١٤٣ ، ابن منقذ القسنطينى : الفارسية ص ١٥٩ ، Atiya : op. cit., P. 93.

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٤٠ ، الجيلالى : تاريخ الجزائر العام ج ٢ ص ٣٣ ، ٣٤ ؛ Atiya : op. cit., P. 94.

وصلا إلى Las Palmas فى جزر البليار (ميورقة) دفن فى كنيسة سان فرانسسكو[1] .

أما بوركارد Burcard فهو . من دعاة الحروب الصليبية فى القرن الرابع عشر الميلادى ، إذ بدأ نشاطه الدينى بالرحيل إلى الشرق الأدنى حوالى سنة ١٣٠٨ م وهناك ظل نحوا من أربعة وعشرين سنة يبشر بالمسيحية وفقاً للمذهب الكاثوليكى ، عندما عاد بوركارد إلى أوربا سمع بمشروع الحملة الصليبية التى كان يعدها ملك فرنسا فيليب السادس دى فالوا Philippe de Valois [2] (١٣٢٨ – ١٣٥٠ م) ، وفى الحال بدأ بوركارد يعد تقريره (Directorium) الذى قدمه للملك سنة ١٣٣٢ م[3].

وفى هذا التقرير اهتم بوركارد بدراسة الطرق المؤدية إلى الشرق ، وعدد منها أربع طرق رئيسية[4] ، منها الطريق الأفريقى ، الذى سبق أن ذكره ريموند لول ، كما درس فيما بعد فى تقرير فيليب دى مزيير فى تاريخ لاحق . إلا أننا نلاحظ أن بوركارد لم يحبذ استخدام هذا الطريق[5] ، نظراً لطول المسافة عبر مضيق جبل طارق إلى الساحل الشمالى لافريقيا ثم الانجاه شرقاً عبر الطريق البرى إلى عكا ، ولا يقصر من طول هذه المسافة اتجاه الصليبيين مباشرة إلى تونس ، ومنها براً إلى الشرق ، يضاف إلى ذلك أن نزول الصليبيين فى شمال أفريقيا سوف يستتبعه

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٢٤٠ ؛
Atiya : op. cit., P. 94 ; Crusade, Commerce, Culture, P. 96.

(٢) لم يقدر لمشروع حملة فيليب السادس أن يخرج إلى حيز التنفيذ ، فبينما كان فيليب يشرف على الترتيبات النهائية لاقلاع حملته من مرسيليا إلى الشرق ، إذ بلغه نبأ هجوم الأنجليز على بلاده ، فتجددت حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا ، واضطر فيليب إلى العودة مسرعا إلى باريس – سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١١٩٨ .

(٣) Atiya : op. cit., P. 97...99 ; Runciman : op. cit., Vol. 3, P. 440.

(٤) الطرق الأربعة التى حددها بوركارد هى : الطريق الأفريقى ، وطريق البحر إلى قبرس ومنها إلى الشام ، وطريق شمال إيطاليا إلى دلماشيا وصربيا ثم إلى القسطنطينية ، وطريق المانيا وهنغارها ثم إلى القسطنطينية – أنظر سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١١٩٦ و ١١٩٧ ؛
Atiya : op. cit., PP. 101...103.

(٥) سعيد عاشور : المرجع السابق جـ ٢ ص ١١٩٦ ، ص ١٢٤٠ .

بالضرورة الدخول فى حروب مريرة ضد الممالك الاسلامية هناك وإذا نجح الصليبيون فى التغلب على هذه العقبة ، سيكون عليهم عبور الصحراء الليبية وتحمل قسوة الحياة بها ، فاذا وصلوا بأمان إلى وادى النيل ، فانهم سوف يجدون سلطان مصر قد أعد عدته للقضاء عليهم ، ولذا فان بوركارد يرى أنه لا أمل لنجاح حملة صليبية تتخذ هذا الطريق ، وفى ضوء هذه الاعتبارات لا يرى بوركارد أى مبرر لحملة القديس لويس السابقة ضد تونس(١).

أما فيليب دى ميزير Philippe de Mèzieres (١٣٢٦ — ١٤٠٥ م) (٢) والذى بدأ نشاطه الدينى سنة ١٣٤٥ م ، فقد كتب تقريراً (Songe du vieil Pélerim) سنة ١٣٨٩(٣) ، وهو تقرير مطول اخلاقى مثالى ، قدم فيه مزير النصح والخبرة ، وكان من بين المشاكل الرئيسية التى درسها مزير فى هذا التقرير ، الطرق التى على الصليبيين أن يسلكوها فى طريقهم إلى الشرق ، وأوضح مزير أنه لا يرى ضرورة فى أن تسير كل القوى الصليبية فى طريق واحد ، وفى نفس الاتجاه ، فهناك طرق مختلفة تناسب أمما مختلفة ، وفى جميع الاتجاهات فان قضيتهم الرئيسية هى خدمة المسيحية(٤).

وبالنسبة للطريق الأفريقى ، رأى مزير ، أنه الطريق المثالى الذى يجب أن يسلكه صليبيو أسبانيا ، وأرغونه ، والبرتغال ، ونافارى ، وأنه على هؤلاء الصليبيين أن يقوموا بغزو ممالك غرناطة ، وبنى مرين ، وتلمسان ، ومراكش ، وتونس ، قبل أن يتوجهوا إلى الشرق(٥).

وإذا كان ريموند لول ، وبوركارد ، وفيليب دى مزير ، قد اهتموا بدراسة طريق شمال أفريقيا كطريق للحملات الصليبية إلى الشرق ، واختلفوا فيما بينهم فى تقدير مدى أهمية هذا الطريق بالنسبة لمشروعاتهم الصليبية ، فان

---

(١) سعيد عاشور : المرجع السابق جـ ٢ ص ١٢٤٠ ، وأنظر ما سبق ص ١٥٦ وما بعدها ، Atiya : op. cit., P. 101.

(٢) Atiya : op. cit., Ps. 137, 140, ; Grusade ..., P. 102.

(٣) Atiya : op. cit., P. 144.

(٤) Atiya : op. cit., PP. 146...147.

(٥) عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٢٤٠ ، Atiya : op. cit., P. 147.

مارينوسانود Marino Sanudo (١٢٧٤–١٣٤٣م) [1] بحكم أصله البندقى اهتم بالعامل التجارى فى الحركة الصليبية ، ولم يغب عنه أهمية شمال أفريقيا التجارية، ولذا كان يرى أن القوة البحرية الصليبية ، يجب أن يشمل حصارها الاقتصادى[2] بالاضافة إلى مصر ، تونس أيضاً ، وغيرها من الممالك الاسلامية[3].

الحملات الصليبية على شمال أفريقيا فى القرن ١٤ م :

لم تكن فكرة أرسال حملة صليبية ضد شمال أفريقيا جديدة على أوربا فى أواخر العصور الوسطى ، فقد مهدت لها حملة لويس التاسع على تونس ، وكتابات دعاة الحرب الصليبية وخاصة ريموند لول ، وفيليب دى مزيير ، ففى الوقت الذى كان فيه فيليب دى مزيير يعد تقريره ، تجمع أسطول مشترك أسهمت فيه صقلية بثلاث سفن ، وبيزا بخمس سفن ، وجنوة باثنتى عشر سفينة ، واستطاع رجال هـذا الاسطول بقيادة منفرد Manfredo de Chiaramonte ، أن يستولوا سنة ١٣٨٨ م على جزيرة جربة[4] الواقعة فى خليج قابس بشمال أفريقيا[5] والتابعة لابى العباس أحمد الثانى المستنصر أمير بنى حفص فى تونس (٧٧٢ – ٧٩٦ هـ – ١٣٧٠ – ١٣٩٣ م)[6] ، ولم تلبث أن وافقت جنوة – صاحبة القوة الكبرى فى الاسطول المشترك – على ضم جربة إلى مملكة صقلية ، بعد أن تعهدت ملكة صقلية مارى Marie بدفع مبلغ ٣٦٠٠٠ قطعة ذهبية لجنوة مقابل ما قامت به من جهد فى فتح الجزيرة [7] ، وفى العام التالى قام البابا أربان السادس

---

(١) Atiya : op. cit., Ps. 116, 126 ; Crusade ..., P. 98.

(٢) عن دور الحصار الاقتصادى فى الحركة الصليبية أنظر سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٩٩ ومابعدها ، Heyd : op. cit., Vol. I, P. 152 ; Vol. II, P. 24, 25 ; Runciman : op. cit., Vol. 3, P. 441.

(٣) سعيد عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ١١٩٨ ، ١١٩٩ ، Atiya : op. cit., P. 123.

(٤) جربة : جزيرة على مقربة من قابس ، بينها وبين البر الكبير مجاز – ياقوت : معجم البلدان .

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٤٠ ، Atiya : op. cit., P. 398.

(٦) ابن المنقذ القسنطينى: الفارسية ص ١٧٧ ، ١٨٨ ، الوزير السراج : الحلل السندسية ج ١ ق ٤ ص ١٠٦٥ ، ١٠٧٠ ، ١٠٧١ .

(٧) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٤٠ ، Atiya : op. cit., P. 398.

Urban VI بتعيين منفرد كحاكم على جزيرة جربة وباقى الجزر الصغيرة القريبة من تونس[1].

وكان لنجاح الأسطول الصليبي المشترك ، وفى مقدمته سفن جنوة ، فى الاستيلاء على جزيرة جربة ، حافزا لجنوة للتفكير فى القيام بحملة صليبية أكبر ضد المسلمين بشمال أفريقيا ذاتها ، ولتحقيق هذا الهدف رأت جنوة ضرورة الاعتماد على مساعدة إحدى الدول الأوربية الكبرى ، فاتجهت إلى شارل السادس ملك فرنسا (١٣٨٠ — ١٤٢٢ م) للتعاون معها فى مشروع الحملة الصليبية على شمال أفريقيا[2].

ويلاحظ أن شمال أفريقيا — فى هذا الوقت — أصبح يعانى من التدهور نتيجة لانحلال دولة الموحدين ، وقيام عدة أمارات على أنقاضها مثل بنى نصر فى غرناطة ، وبنى مرين فى فزان ، وبنى عبد الواد فى تلمسان ، والحفصيين فى تونس[3].

كانت تونس هى موضع اهتمام الصليبيين فى القرن الرابع عشر ، نظراً لأهمية موقعها التجارى ، مما جعل كثيراً من التجار الإيطاليين بصفة خاصة يترددون على تونس — العاصمة وموانيها مثل سوسة ، والمهدية ، وسفاقس ، وقابس ، فضلا عن جزيرة جربة التى استولت عليها صقلية سنة ١٣٨٨ م[4].

كما كانت موانى تونس قواعد طيبة لكثير من المجاهدين المسلمين ، والذين لم يفرقوا بين أعمال القرصنة والجهاد ، فيذكر ابن خلدون أن غزاة البحر «يصطنعون الأسطول ويتخيرون له أبطال الرجال ، ثم يركبونه إلى سواحل الفرنجة — وجزائرهم ، على حين غفلة فيتخطفون منها ما قدروا عليه ، ويصادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة ، فيظفرون بها غالبا ويعودون بالغنائم والسبي والاسرى حتى امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية باسراهم[5]» ولما عجز الحفصيون عن

---

(١) Atiya. op. cit. p. 398.

(٢) كانت فرنسا تمر بفترة استجمام بعد انتهاء الدور الأول من أدوار حرب المائة عام مع إنجلترا سنة ١٣٦٠ م — أنظر سعيد عاشور : المرجع السابق جـ ٢ ص ١٢٤٠ ، Atiya : op. cit., P. 399.

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٢٤١ ، Atiya : op. cit., P. 401.

(٤) أنظر ما سبق ص ١٦٧ ، . سعيد عاشور : المرجع السابق جـ ٢ ص ١٢٤١ ، Julien : op. cit., P. 149.

(٥) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ .

منع أولئك المجاهدين القراصنة ، من مزاولة نشاطهم ، عمدوا إلى مساعدتهم وتشجيعهم [1].

ولم تستطع الجمهوريات الايطالية ، التى اعتمدت فى حياتها على التجارة ، أن تسكت على تلك الاعتداءات ، ولا سيما بعد أن ثبت لديها أن شواطىء تونس بالذات هى الاوكار الرئيسية للقراصنة ، وأن هؤلاء يحظون بعطف أمير تونس ، وفى ذلك يقول ابن خلدون : « فشق ذلك على أمم الفرنجة ، فتداعوا لمنازلة المسلمين والاخذ بالثأر منهم »[2] .

اختار الجنوية أن يوجهوا حملتهم الصليبية التالية إلى المهدية [3] ، ولذلك أرسلوا سفارة إلى شارل السادس — ملك فرنسا — تطلب معونته [4] ، وذلك فى ٢٩ نوفمبر ١٣٨٩ م ، ونجح الجنوية فى استثارة حماسة الملك شارل ، بعد أن صوروه فى صورة حامى المسيحية ، المدافع عن كيانها ضد المسلمين ، كما تعهد الجنوية بالاشتراك فى هذه الحملة بعشرين ألفا من المحاربين ، فضلا عن تقديم السفن والمؤن اللازمة للصليبيين ، ووعد الملك بالتفكير فى الامر ، واتخاذ قراره خلال يومين ، ويقال أنه اعتذر عن عدم إمكانه تولى قيادة الحملة[5].

عرض شارل السادس الفكرة على أمرائه ، فعارضها البعض بحجة حاجة فرنسا إلى الاحتفاظ بقوتها ، ولا سيما وأن الحرب قد تتجدد بين لحظة وأخرى مع إنجلترا ، فضلا عن عدم جدوى مثل تلك الحملة على شمال أفريقيا ، ولكن انتصر رأى

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٤٢ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٤٠٠ .

(٣) المهدية : فى أفريقية (تونس) منسوبة إلى المهدى عبد الله المهدى ، ولها موقع استراتيجى هام بين سفاقس والمنستير ، وهى جزيرة متصلة بالبر (أى شبه جزيرة) كهيئة كف متصلة بزند ، محصنة بسور ، وأبواب الحديد المصمت ، فى كل مصراع من الأبواب مائة قنطار ، ولها بابان بأربعة مصاريع ، لكل باب دهليز يسع خمسمائة فارس ، ويقول البكرى أن كل باب وزنه ألف قنطار ، وعلى طرفى المرسى برجان بينهما سلسلة حديد ولها مرسى منقور فى حجر صلد يسع ثلاثين مركبا يقوم على طرفيه برجان بينهما سلسلة من حديد تحميه من طرق مراكب الروم . ياقوت : معجم البلدان . ؛ البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفرقية والمغرب ص ٢٩ ، ٣٠ ، ابن خلدون : ج٤ ص ٧٩ ، مجهول : كتاب الاستبصار (تحقيق د. سعد زغلول عبد الحميد) ص ١١٧ ، ١١٨

(٤) أنظر ما سبق ص ١٦٧ .

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٤٢ ، Atiya : op. cit., P. 403.

الامراء الشبان الذين دفعتهم حماستهم إلى التمسك بفكرة مساعدة الجنوية، ومشاركتهم فى حملتهم الصليبية على شمال أفريقيا[١].

وافق شارل السادس على المساهمة فى مشروع الحملة الصليبية — الذى تقدمت به جنوة — ضد المهدية، ولكنه وضع بعض الشروط لهذه المساعدة منها: أن يزود المشتركون فى هذه الحملة أنفسهم بالسلاح على حسابهم الخاص، وليس على حساب الدولة، وألا يستخدم كبار البارونات لهذه الحملة الرجال من خارج إقطاعاتهم، وأن المسموح لهم بالاشتراك فى هذه الحملة هم الفرسان والمشاة فقط، وليس للعامة هذا الامتياز، ما داموا على الأقل ليسوا من السادة، وأخيراً ألا يزيد عدد المشتركين فى الحملة عن خمسة عشر ألفا[٢].

ووقع الاختيار على لويس الثانى البوربونى Louis II, duc de Bourbon خال الملك، ليتولى قيادة الحملة، فقد كان رجلا ناضجاً، ذو خبرة فى شئون الدولة والحرب[٣]، ويقال أن لويس البربونى « توسل إلى الملك ليمنحه قيادة الحملة وأن يسمح له بالحرب باسم الملك، وفى خدمة الرب، وحيث لا يوجد مجد يعادل السير على خطوات لويس التاسع، والحرب فى المنطقة التى قضى فيها القديس آخر أيامه للدفاع عن القضية المقدسة »[٤].

ذاع خبر الحملة التى يعدها لويس الثانى البربونى، فاقبل على المشاركة فيها الكثيرون، وألحوا فى السماح لهم بحمل الصليب قبل أن يكتمل العدد حسب الأمر الملكى[٥]، كما أقبل على الاشتراك فى هذه الحملة عدد كبير من إنجلترا، وأرغونة وفلاندرز، ومختلف أنحاء فرنسا، أما الفرسان الفرنسيون الذين اسهموا فى هذه الحملة فبلغ عددهم نحو ألف وخمسمائة فارس[٦]، كما بلغ عدد سفنها حوالى مائة سفينة كبيرة، بالاضافة إلى عدد من السفن الصغيرة[٧]، وتم الاتفاق على أن

---

(١) سعيد عاشور: المرجع السابق جـ ٢ ص ١٢٤٢، ١٢٤٣، Atiya : Ibid.

(٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٢٤٣، Atiya : op. cit., P. 404.

(٣) ولد لويس البوربونى فى ٤ أغسطس ١٣٣٧، أى أنه كان فى الثالثة والخمسين فى وقت الحملة — أنظر Atiya : op. cit., P. 405.

(٤) Atiya : op. cit., P. 406 ; Crusade ..., P. 105.

(٥) أنظر ما سبق، Atiya: op. cit., P. 407, 408.

(٦) Cam. Med. Hist., Vol. 7, P. 370.

(٧) الزركشى: تاريخ الدولتين ص ١١٢، الوزير السراج: الحلل السندسية جـ ١ ق ٤ — ص ١٠٦٩، Atiya : op. cit., P. 406.



شاطىء المهدية كما فى خرائط القرن ١٦ م ـ انظر :

Atiya, A.S. : The Crusade in the Later Middle Ages, P. 398, According to the Turk Piri Re'is, Dresden (Sa chsische Staatsbibl.) Ms. Eb. 389, Fol. 117 vo

يكون تجمع القوات الفرنسية فى مرسيليا ، والقوات الجنوية فى جنوة ، ثم اجتمع الجميع فى جنوه ، ومنها أبحرت الحملة إلى المهدية فى الثالث أو الرابع من يوليو ١٣٩٠ م(١).

اتبعت الحملة أقصر طريق بين جنوة وتونس ، فسارت فى البحر التيرانى ، ثم البحر المتوسط إلى خليج قابس ، وتوقف الاسطول عند جزيرة صغيرة لاتبعد أكثر من ١٨٠ ميلا عن الشاطىء الافريقى ، وذلك لمدة تسعة أيام من أجل راحة الجنود ، ولعقد مجلس الحرب والمشورة لتقرير الخطوات التى يجب اتباعها عند الوصول إلى الشاطىء الافريقى(٢).

استقر الرأى النهائى على أن تكون المهدية (Cité d'Auffrique) الهدف الرئيسى للحملة ، وقام هذا الاختيار على أساس أن المهدية هى المركز الرئيسى للقراصنة المسلمين ، الذين كثيراً ما اعتدوا على السفن المسيحية ، وهاجموا المدن والقرى على شواطىء سردينيا ، وصقلية ، وإيطاليا(٣).

يضاف إلى ذلك أنه سبق للاوربيين الاستيلاء على المهدية مرتين : مرة سنة ٤٨٠ هـ — ١٠٨٧ ، عندما استولت عليها قوة مشتركة من جنوة ، وبيزا ، ونورمان صقلية ، ومرة ثانية سنة ٥٤٣ — ١١٤٨ م ، عندما استولى عليها نورمان صقلية ، وفى هذه المرة استمرت المهدية كمستعمرة تابعة لصقلية لمدة أثنتى عشرة سنة قبل أن يستردها الموحدون فى عهد عبد المؤمن سنة ٥٥٥ هـ — ١١٦٠ م (٤)، وأنه طالما نجحت الجيوش المسيحية فى الاستيلاء عليها مرتين ، فيبدو أنه من الممكن الاستيلاء عليها هذه المرة أيضاً سنة ٧٩٢ هـ — ١٣٩٠ م .

هذا فضلا عن أن المهدية من أقوى المدن الساحلية التونسية ، وأن الاستيلاء

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٤٠٠ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٢٣٤ ،
Atiya : op. cit., P. 409,410.

(٢) Atiya : op. cit., P. 411 ; Crusade ..., P. 106.

(٣) أنظر ماسبق ص ١٦٨ ، ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٣٩٩ و ٤٠٠ .

(٤) ياقوت : معجم البلدان — مادة المهدية ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ١١ ص ١٢٥ ، ٢٤١ .

عليها يقضى على قوة تونس ، ويتيح للصليبيين الفرصة لعمليات أكبر على اعتبار أن المهدية هى مفتاح أفريقيا الشمالية[١] .

وصلت أخبار الاعداد لهذه الحملة إلى تونس ، قبل وصول الصليبيين ، فارسل أبو العباس أحمد الثانى المستنصر ، أمير تونس ابنه أبافارس « يستنفر أهل النواحى ، ويكون رصداً للاسطول هناك ويراقب الشواطىء »[٢]، ورغم هذا استطاع الصليبيون النزول إلى الشاطىء دون مقاومة[٣] ، فقد وضع المسلمون خطتهم على أساس التحصن فى مدينة المهدية ، وتجنب الاشتباك المباشر مع الصليبيين ، فيما عدا قذف النيران من الأبراج على الأسطول أثناء دخوله الميناء ، وترك الصليبيين خارج المدينة تحت رحمة حرارة الجو فى ذلك الوقت من السنة[٤].

مضى اليوم الأول دون أى اشتباك سواء من الصليبيين أو من حامية المدينة[٥]، وفى صباح اليوم التالى أمر الدوق لويس ببدء الحصار براً وبحراً ، فتولى الجنوية الحصـار مـن ناحية البحـر ، بينما قـام الفرنسيون ، وبـاقى الصليبيين الأجانب بمحاصرة المدينة من الجهات البرية الثلاث ، وقطع جميع الاتصالات بين المهدية والمناطق المجاورة ، وبالتالى منع وصول أى امدادات إليها[٦].

مرت ثلاثة أيام دون أى إشتباك بين الطرفين ، ولكن فى نهاية اليوم الثالث ، وبينما كان الصليبيون يتناولون عشاءهم ، قام المسلمون بهجوم مفاجىء على المعسكر الصليبى ، وقدرت المصادر عدد المسلمين الذين قاموا بهذا الهجوم المفاجىء بعدد

---

(١) Atiya : op. cit., P. 412.

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٤٠٠ .

(٣) لا يعرف على وجه التحديد اليوم الذى نزل فيه الصليبيون إلى البر ، فهو فيما بين يوم ٢٢ يوليو ويوم ٧ أغسطس ١٣٩٠ م – أنظر. Atiya : op. cit., P. 415.

(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٢٤٤ ، Atiya : op. cit., P. 414, 415.

(٥) تذكر المصادر العربية : « فاتفق للمولى ابى فارس عبد العزيز مع النصارى وقائع منها فى يوم نزولهم وقعت بينهم وبين النصارى حروب كان للمسلمين فيها جولة » الزركشى : أخبار الدولتين ص ١١٢ ، الوزير السراج : الحلل السندسية جـ ١ ق ٤ ص ١٠٦٩ ، والمعروف أن القوات الإسلامية بقيادة ابى فارس كانت مرابطة خارج المهدية – أنظر ما يلى ص ١٧٤ .

(٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٢٤٤ ، Atiya : op. cit., P. 416.

يتراوح بين ستة آلاف ، وأثنتى عشر ألفا ، إلا أن الحراس الصليبيين ، و كانوا نحوا من مائتى فى اسلحتهم ، وألف من الجنوية رماة الاقواس ، كانوا مستعدين لمثل هذا الهجوم المفاجىء ، وتمكنوا من صد هجوم المسلمين ، ومتابعتهم إلى بوابات المدينة ، ولم تجرؤ حامية المدينة بعد ذلك على القيام بهجوم مماثل ، وكان عليها أن تدافع عن المدينة من وراء الأسوار تاركة الأراضى الفسيحة — خارج الاسوار — للجيوش الصليبية ، والجيوش الإسلامية التى قد تأتى من أى مكان فى تونس(١).

ليس من السهل تحديد عدد الجيش الاسلامى — الذى وصل خارج المدينة — فالمصادر الغربية(٢) تبالغ عادة فى اعداد المسلمين لتزيد من أهمية العمل الذى يقوم به الصليبيون ، فتذكر أن قوات إسلامية وصلت بقيادة ابى فارس — ابن أمير تونس — ، وأن مقدمة هذه القوات وصلت إلى خارج المهدية قبل وصول الصليبيين ، أما القوات الرئيسية للجيش الإسلامى ، فقد تتابع وصولها لعدة أيام ، وأنه بينما يقوم الصليبيون بمحاصرة المدينة ، جاءت سفينتان جنويتان كانتا تراقبا الشاطىء ، تخبران بتقدم الجيش الإسلامى ، وعلى رأسه امراء تونس ، وبجاية ، وتلمسان ، ويقدر عددها بستين ألفا من الجنود الأقوياء ، وفى رواية أخرى أنه بلغ عددها أربعين ألفا من الجنود(٣).

ورغم هذا تجنب المسلمون الاشتباك مع الصليبيين فى معركة فاصلة ، فعندما وصلوا إلى مرمى ضربة قوس من الصليبيين لم يتقدموا أكثر من ذلك ، وعندما حل الليل تحصنوا فى مواقعهم فوق تل صغير فى مواجهة العدو(٤).

كان للصليبيين هدفين : الأول هو صد أى هجوم مفاجىء يقوم به المسلمون ، والثانى هو محاولة اخراج المسلمين من حصونهم ، وجرهم إلى معركة فى المنطقة السهلية ، ولكن ما أن وصلت الاخبار الجديدة بتقدم الجيش الإسلامى الكبير حتى

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٤٤ ، Atiya : op. cit., P. 417.

(٢) لم تحدد أى من المصادر العربية المتداولة اعداد هذا الجيش .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٤٠٠ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٤٤ ، Atiya : op. cit., P. 418.

(٤) Ibid.

جمع الدوق مجلس الحرب ، للنظر فيما يمكن عمله لتحقيق أهدافهم ، فاما الجنوية الذين يعرفون أهل المغرب من المسلمين ، أكثر من غيرهم ، فقد اشاروا بضرورة احاطة المهدية بسور يعلو أربعة أقدام لمنع خيول المسلمين من القفز فى المعسكر الصليبي واشاعة الذعر بين القوات ، واقامة الابراج على هذا السور حتى يتمكنوا من مقاتلة حامية المدينة(١).

وبينما يحسن الصليبيون أوضاعهم الدفاعية ، فان المسلمين تجنبوا الدخول فى معركة حاسمة ، بل أنهم حافظوا على جعل العمليات محدودة ، وفى اضيق نطاق ، فاقتصر الأمر على مناوشات بين الطرفين ، ولكن عندما انتهى الصليبيون من بناء السور ، ونصبوا عليه برجا كبيراً يشرف على المدينة وشحنوه بالمقاتلة ، اسرع المسلمون إلى قذف ذلك البرج « بالحجارة والسهام والنفط فاحترق البرج »(٢).

استمر الحصار الصليبي للمهدية تسعة أسابيع ، لم يحقق الصليبيون خلالها أى نصر أو تقدم ، فلم يستطيعوا اقتحام المدينة ، أو التغلب على الجيش الذى حضر بقيادة ابى فارس ، والذى ظل مرابطاً أمام الصليبيين ، هذا فى الوقت الذى بدأ الصليبيون — يعانون فيه من قسوة حرارة الصحراء الافريقية ، كما بدأت مؤنهم فى التناقص ، فعانوا من نقص مياه الشرب ، وزاد عدد مرضاهم ، كما بدأ الجنوية يشكون من تعطل سفنهم ، وأصبح الشعور العام فى المعسكر الصليبي يفضل رفع الحصار ، بعد أن شكوا فى جدواه ، ولم يكن المسلمون أقل رغبة من الصليبيين فى إنهاء هذا الوضع ، بعد أن تعذر عنيهم أيضاً القيام بعمل حاسم ضد الصليبيين(٣).

وازاء هذه الظروف فمن الطبيعى أن يرحب الطرفان بمفاوضات من أجل السلام ، وبدأ الجنويون يتوسطون لانهاء هذه الحملة الصليبية ، فهم أكثر علاقة بأهل تونس ، ومعرفة بالبلد ، كما أنهم أيضاً أقل اهتماما بالحملة الصليبية كحرب مقدسة ، ولكن كبقية أهل المدن الايطالية ، ينظرون إليها من خلال مصالحهم الاقتصادية(٤).

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٤٠٠ ، Atiya: op. cit., P. 419.

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٤٠٠ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٤٤ ، Atiya : op. cit., P. 423.

(٣) سعيد عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ١٢٤٤ ، Atiya : op. cit., P. 425.

(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٦٢ وما بعدها ، Atiya : op. cit., P. 426.

دخل الجنوية فى مفاوضات مع أمير تونس الحفصى ، دون أخذ رأى لويس الثانى البوربونى ، قائد الحملة[١] ، وبعد أربعة أيام توصل الطرفان إلى عقد هدنة لمدة عشر سنوات كما تعهد أمير تونس بألا يتعرض – طوال مدة الهدنة – للمسيحيين فى بلاده بأذى ، وأن يدفع دخل المهدية للجنويين مدة خمسة عشر سنة ، وأن يدفع خلال عام خمسة وعشرين ألفا من الدوكات لكل من لويس البوربونى وجمهورية جنوة ، تعويضاً عن النفقات التى تحملوها فى تلك الحملة[٢].

أقر لويس البوربونى ، وكبار رجال حملته ، هذه الاتفاقية ، ووجدوا فيها ترضية – كافية للصليبيين ، وتعويضاً لهم عما تكبدوه من أموال ، ولذلك أمر لويس رجال الحملة بالانسحاب إلى السفن التى ابحرت عائدة إلى صقلية ومنها إلى جنوة ، حيث اتجه كل فريق من الصليبيين إلى بلده[٣] ، وفى ذلك تذكر المصادر العربية : « وخيب الله سعيهم وانصرفوا بعد شهرين ونصف من نزولهم »[٤] ، أو « فانصرفوا خائبين »[٥] ، أو « وتفرقوا شذر مذر »[٦].

وهكذا انتهت الحملة الصليبية على المهدية سنة ١٣٩٠ م ، دون أن تحقق أى من أهدافها ، فلم تستولى على المدينة ، ولم تحطم قوة القراصنة ، أو الجيش الاسلامى فى شمال أفريقيا ، كما أنها لم تحقق للصليبيين أى نجاح فى الشرق[٧] ، مما جعل ابن خلدون يصف تلك النهاية بانها جاءت فشلا للمسيحيين . ونصراً لجيوش المسلمين[٨].

---

(١) اعتبرت المصادر العربية هذا الوضع غدرا من الجنوية بالفرنسيين ، فذكر الوزير السراج : « ثم ان النصارى فى أنفسهم اضطربت أحوالهم لانهم كانوا من فرقتين أهل جنوة وفرانسة ، وأراد أهل الجنوة الغدر بالفرنسيس » ، كما ذكر الزركشى : « ثم أن النصارى اختلفوا فيما بينهم واراد الجنوى الغدر بالفرنسى » – أنظر الحلل السندسية ج ١ ق ٤ ص ١٠٧٠ ، تاريخ الدولتين ص ١١٣ .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٤٥ ،

Atiya : op. cit., P. 427 ; Crusade ..., P. 106.

(٣) سعيد عاشور : المرجع السابق ج ٢ ص ١٢٤٥ ، Atiya : op. cit., PP 428...430.

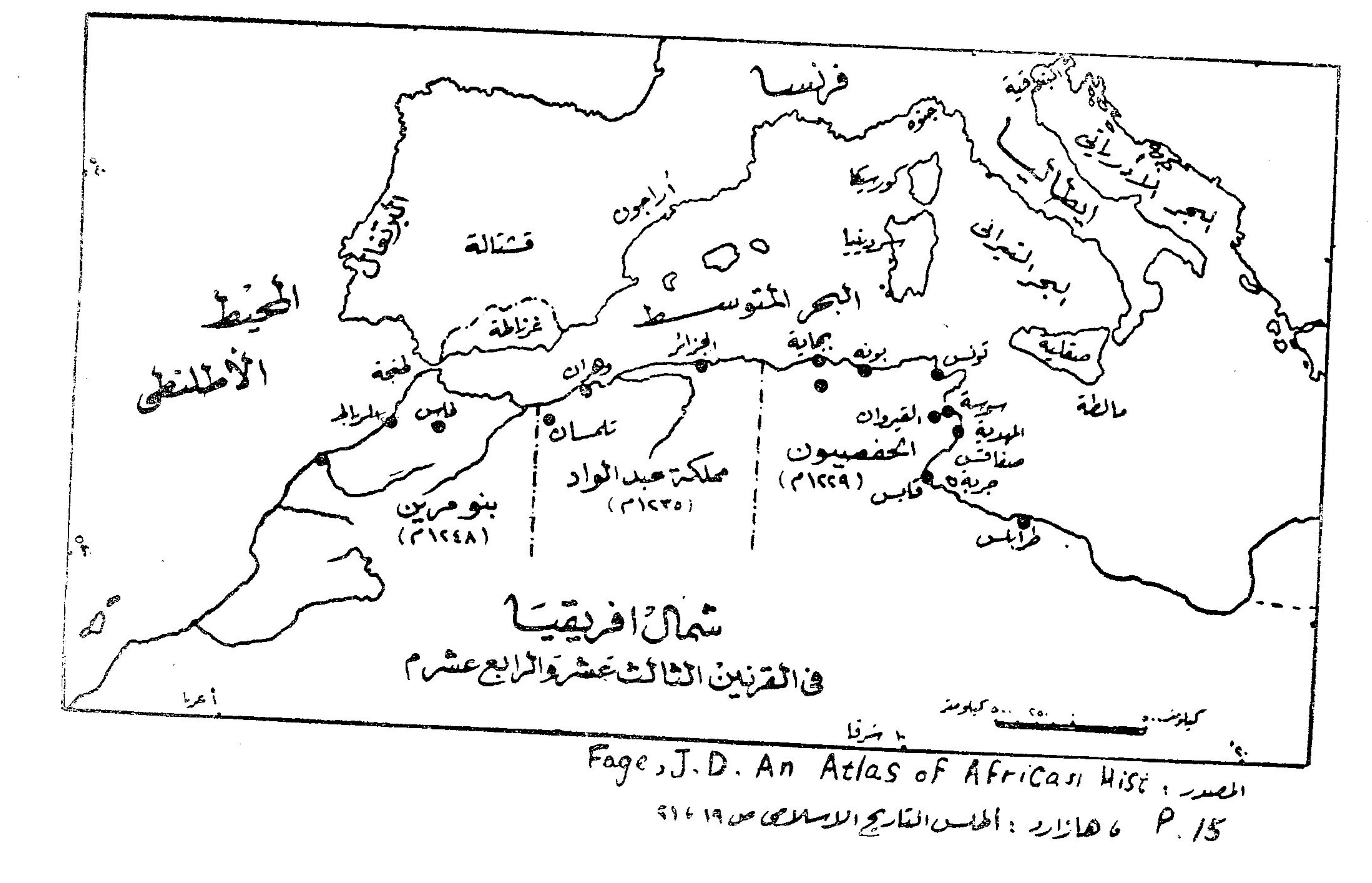
(٤) ابن القنفذ القسنطينى : الفارسية ص ١٨٨ .

(٥) الزركشى : تاريخ الدولتين ص ١١٣ .

(٦) الوزير السراج : الحلل السندسية ج ١ ق ٤ ص ١٠٧٠ .

(٧) Atiya : op. cit., P. 432.

(٨) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٤٠٠ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٤٥ .



المصدر : Fage, J.D. An Atlas of African Hist. P. 15
و هازارد : اطلس التاريخ الاسلامي ص ١٩، ٩١

لم ينته دور شمال أفريقيا فى الحركة الصليبية ، بانهاء هذه الحملة ، فمن المعروف أن الحروب الصليبية نقلت ميدانها من المشرق إلى المغرب فى القرن الخامس عشر ، وأن الإسبانيين والبرتغاليين هم الذين تزعموا الحركة الصليبية فى ذلك الوقت ، وكما تطلع المشرق إلى المغرب فى جهاده ضد الصليبيين ، عندما كان المشرق هو الميدان الرئيسى للحركة الصليبية ، فان المغرب تطلع إلى المشرق أيضاً فى جهاده ضد الحركة الصليبية فى القرن الخامس عشر ، ذلك التطلع الذى انتهى باستيلاء العثمانيين على الجزائر سنة ١٥٢٩ م ثم ، على تونس سنة ١٥٣٤م .

مراجع البحث

أولا : المصادر :

١ ــ ابن ابى دينار (أبو عبد الله محمد بن ابى القاسم الرعينى القيروانى من علماء تونس فى اواخر القرن ١١ هـ ــ ١٧ م) :
ــ المؤنس فى أخبار أفريقيا وتونس
تحقيق وتعليق محمد شمام ــ الطبعة الثالثة
تونس ١٩٦٧ .

٢ ــ ابن أبى زرع (على الفاسى ت ٧٤١ هـ / ١٣٤٠م) :
ــ الأنيس المطرب بروض القرطاس (فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس)
الرباط ١٩٧٣

٣ ــ ابن الاثير (عزالدين أبو الحسن ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢م) :
ــ الكامل فى التاريخ
١٢ جزء بيروت ١٩٦٦

٤ ــ ابن ايبك (أبو بكر عبد الله ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) :
ــ كنز الدرر وجامع الغرر
الجزء السابع وعنوانه : الدر المطلوب ى اخبار بنى أيوب.
تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
القاهرة ١٩٧٢

٥ ــ ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥م) :
ــ العبر وديوان المبتدأ والخبر
بولاق ١٢٨٤ هـ .

٦ ــ ابن القنفذ القسنطيني ــ (أبو العباس أحمد بن حسين بن على بن الخطيب ت ٨١٠ هـ ــ ١٤٠٧م) :
ــ الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية.
تقديم وتعليق محمد الشاذلى النيفر وعبد المجيد التركى
تونس ١٩٦٨

٧ ــ ابن منكلى (محمد بن منكلى من علماء القرن ٨ هـ/١٤م) :
ــ الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى البحر .
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٣ فروسية تيمور
(قام بدراستها وتحقيقها الدكتور / عبد العزيز محمود عبد الدايم ــ رسالة دكتوراه غير منشورة بجامعة القاهرة ١٩٧٤) .

٨ ــ ابن واصل (جمال الدين محمد ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧م) :
ــ مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب
الأجزاء ١ ــ ٣ نشر الدكتور جمال الدين الشيال .
القاهرة ١٩٥٣ ــ ١٩٦٠
الجزء الرابع نشر وتحقيق الدكتور حسنين محمد ربيع
القاهرة ١٩٧٢ .
باقى الكتاب مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٣١٩
تاريخ .

٩ ــ أبو شامة (شهاب أبو محمد عبد الرحمن ت ٦٦٥ هـ ــ ١٢٦٦م) :
ــ كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين .
القاهرة ١٢٨٧ هـ .

١٠ ــ البكرى (ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤ م)
ــ المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب
نشر دى سلان الجزائر ١٨٥٧م)

١١ – الزركشي (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم من علماء القرن ٩ هـ/١٥م)
– تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية.
تحقيق وتعليق محمد ماضور
الطبعة الثانية – تونس ١٩٦٦

١٢ – القلقشندى (أبو العباس أحمد ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨م):
– صبح الاعشى فى صناعة الانشا.
١٤ – جزء القاهرة ١٩١٣ – ١٩١٨.

١٣ – مجهول (كاتب مراكشى مجهول)
– كتاب الاستبصار
نشر وتحقيق: الدكتورسعد زغلول عبد الحميد
الاسكندرية ١٩٥٨

١٤ – المقريزى (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م):
– السلوك لمعرفة دول الملوك
الجزء الأول والثانى (٦أقسام)
نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة.
القاهرة ١٩٣٦ – ١٩٥٨
الجزء الثالث والرابع (٦ أقسام) نشر الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور.
القاهرة ١٩٧٠ – ١٩٧٣

١٥ – الوزير السراج (محمد بن محمد الاندلسى ت ١١٤٩هـ / ١٧٣٦م):
الحلل السندسية فى الأخبار التونسية
الجزء الأول –أربعة أقسام.
تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة.
تونس ١٩٧٠.

١٦ – ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى ت٦٢٦هـ / ١٢٢٩م)
– معجم البلدان.
طهران ١٩٦٥ م طبعة بالأوفست عن طبعة ليبزج ١٨٦٦ م.

ثانيا – المراجع العربية :

١٧ – باركر (ارنست) :
– الحروب الصليبية
ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى – بيروت ١٩٦٧ .

١٨ – الجيلالى (عبد الرحمن بن محمد)
– تاريخ الجزائر العام – جزءان
بيروت ١٩٦٥ .

١٩ – سعد زغلول عبد الحميد (الدكتور) :
– العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب المنصور
بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدى .
مجلة كلية الآداب – جامعة الاسكندرية ١٩٥٢ –١٩٥٣
ص ص ٨٤ – ١٠٠ .

٢٠ – سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور) :
– الحركة الصليبية جزءان – القاهرة ١٩٦٣ .
– أوربا العصور الوسطى الجزء الأول – القاهرة ١٩٧٢
– الظاهر بيبرس – القاهرة ١٩٦٣ .
– الناصر صلاح الدين – القاهرة ١٩٦٥

٢١ – السلاوى (أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى)
– الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى – ٣ أجزاء
الدار البيضاء ١٩٥٤ .

٢٢ – عبد القادر أحمد اليوسف (الدكتور) :
– العصور الوسطى الأوربية
بيروت ١٩٦٨

٢٣ – محمد محمد أمين (الدكتور) :
– السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب
رسالة ماجستير غير منشورة – جامعة القاهرة ١٩٦٨ .

٢٤ – محمد مصطفى زيادة (الدكتور) :
– حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة
القاهرة ١٩٦١

ثالثا — المراجع الاوربية :

25. Archer, (T. A.) :
    — The Crusades. London 1914.

26. A tiya (A.S) :
    — The Crusade in the Later Middle Ages. London 1938.
    — Crusade, Commerce and Culture, Blomington 1962.

27. Calmette (J) = Le Moyen Age, Paris 1948.

28. Duggan (A.) = The Story of the Crusades 1097-1291 London 1963.

29. Gibb. (S.H.) : The Life of Saladin. Ox ford 1973.

30. Grousset (R.) : Hist-des Croisades 3 vols. Paris 1943-6.

31. Heyd W. : Hist. du Commerce du Levant, 2 vols. Leipzig, 1936.

32. Joinville : The Life of Saint Louis ed-Penguin 1963.

33. Julien (ch. A.) : History of North Africa, translated by John Petrie, ed. C.C. Stewart, London 1970.

34. Langlois (ch.-v.): Hist. de France, Tome 3' II (1226-1328), ed. Ernest Lavisse, Paris 1901.

35. Runciman (S.) : A History of the Crusades, 3 vols, Cambridge 1951-1955.

36. Sadeque (S.F.) : Baybars I of Egypt, Dacca 1965.

37. Stepheuson (C.) : Mediaeval History, United States Armed Forces Institute, 1943.

38. Turner (w.) : The Catholic Encyclopedia, Vol. XII.

39. Cam. Med. Hist. vols. VI. VII, Cambridge 1957-1958.

وأنظر أيضا:

1. Brunschvig (R.) : La Berberie Oriental sous Les Hafcides, 2 vols. Paris 1940-1949.

2. Mas Latrie (M. de). ed. Commerce et expéditions militaires de La France et de Veni e au moyen age, Paris 1835.

3. Mirot (L.) : Une Expédition française en Tunisie au XIVe siécle, le siége de Mahdia, 1390, Revéu des eutdés historique, Paris 1932.

4. Peers, E. Allison : Roman Lull, London. 1929.

5. Wolff (R.W.), and Hazard (H.R.) eds. The Later Crusades, Philadelphia, 1961.